عوامل النصر والهزيمة
في ضوء القرآن الكريم

إعداد: د. أنور صالح أبو زيد



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، خلق فسوى، وقدر فهدى، وأحاط كل شيء علما، فله الحمد في الآخرة والأولى، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واتبع طريقه واهتدى بهداه إلى يوم الدين. أما بعد:

فأقول مستعيناً بالله:

لقد سنَّ الله تعالى النظر في سير الأولين و الآخرين لمعرفة أسباب الظفر والتمكين وأسباب الفشل والتراجع فهل كُتب على المسلمين عدم الاعتبار بحدث ماضٍ، وعدم التفكير بما وقع لإخوان لهم في زمن قريب ؟ هل دُرست كل الحركات التي قامت سابقاً ولاحقاً ؟ تلك الحركات التي أكبر أسباب فشلها ناتج عن العجلة وقلة الاستعداد المطلوب شرعاً وعقلاً، بل إن البعض الآن لا يتعجل قطف الثمار لأنهم يعلمون – كما يصرحون – أن لا ثمار ولا نتيجة من وراء هذا العمل ، ولكنهم يعملون لمجرد أنه لا يوجد طريق آخر بنظرهم !

- ففي القرآن: التأكيد على هذه السنة العامة التي لا تتخلف ولا تتبدل: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ولذلك: فإنه حين تساءل المسلمون بعد هزيمة (أحد): [أَنَّىٰ هَٰذَا].. جاءهم الجواب من الله: ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[آل عمران : ١٦٥]، وعن المشكلة ذاتها كان تعقيب القرآن على غزوة حنين: ﴿ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].
- كما تؤكد آيات القرآن وأحاديث رسول ﷺ أن سبب الهزائم ينشأ من داخل الأمة بـ (الوهن) الحضاري الذي لا يُنْتج إلا الاستسلام للأعداء، والكف عن منازلتهم .. كذلك تشهد لهذه القاعدة آيات الآفاق والأنفس.
- ونظرة واحدة في تاريخ المسلمين تؤكد أن ما لحق بالأمة ولا يزال يلحق بها إنما هو في الحقيقة عقوبات مستحقّة .. وأن كل أمة تستسلم للنوم، فإن الله يبعث عليها سوطاً يوقظها سواء كان هذا (السوط) عدواً من الخارج، أو اضطراباً في الداخل.

(فالنفس لا تنتصر في المعركة الحربية إلا حين تنتصر في المعارك الشعورية والأخلاقية والنظامية...كما أنه لا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي ما لم يقم هذا كله على أساس المنهج الرباني في الانتصار على النفس، والغلبة على الهوى، والفوز



على الشهوة، وتقرير الحق الذي أراده الله في حياة الناس، ليكون كل نصر نـــصراً لله ولمـــنهج الله، وليكون كل جهد في سبيل الله ومنهج الله، وإلا فهي جاهلية تنتصر على جاهلية)[١].

فالجماعة المسلمة التي تريد أن تنتصر على عدوها لا بد وأن تتزود بمادة الإعداد، وهذه المادة لا تقتصر على آلة الحرب، بل يتحتم عليها التعبئة الكاملة، تلك التي أشارت إليها آيات غزوة أحـــد فـــي سورة آل عمران حيث لم تقتصر على معالجة الجماعة المسلمة في ميدان المعركة فقط، بل في ميدان النفس البشرية والحياة الواقعية، (ومن ثم عرج السياق القرآني على الربا فنهى عنه، وعرج على الإنفاق في السراء والضراء فحض عليه، وعرج على طاعة الله ورسوله فجعلها مناط الرحمة، وعرج علـــى كظم الغيظ والعفو عن الناس، وعلى الإحسان والتطهر من الخطيئـــة بالاســـتغفار، والتوبـــة وعـــدم الإصرار، فجعلها كلها مناط الرضوان، كما عرج على مبدأ الشورى وتقريره في أحـــرج الأوقـــات، وعلى الأمانة التي تمنع الغلول، وعلى البذل والتحذير من البخل في نهاية ما نزل في التعقيـــب علـــى الغزوة من آيات، عرج على هذا كله لأنه مادة إعداد الجماعة المسلمة للمعركة في نطاقها الواسع)[٢].

كما أننا لو تأملنا في هذه الغزوة هل هي نصر أم هزيمة ؟ نجد اختلاف معايير النصر والهزيمـــة عند المؤرخين والعسكريين، فالمؤرخون يقومون النصر والهزيمة بناء على ضوء ما لحق الجيـــشين من الخسائر ، فمن كانت خسارته أكثر فهو المهزوم، أما العسكريون فيقومون النصر والهزيمـــة فـــي المعارك في ضوء الأهداف التي تحققت لكل من المتحاربين، فالذي حقق أهدافه هـــو المنتـــصر وإن كانت خسارته في القتلى والجرحى أكثر.

لقد أجمع المؤرخون على اعتبار أن نتيجة أحد نصر للمشركين ، لكن الحقائق العسكرية لا تتفـــق مع ما أجمع عليه المؤرخون فإن فشل المشركين في القضاء على قوات المسلمين بعد إحاطتهم بقواتهم المتفوقة يعد اندحاراً لهم، وإن نجاح المسلمين في الخروج من تطويق المشركين يعد نصراً لهم[٣].

وحتى نقف على التفسير الصحيح لهذه الحال (الوهن) فإنه لابد من أن نتعرف على أمور:

أولها : التعرف على الحكمة في قضاء الله وقدره.

فالله عز وجل بعلمه الشامل وحكمته البالغة قدر وقضى أن يكون الصراع بين الحق والباطل موجودا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كما أن علينا أن ندرك طبيعة هذا الصراع وأنه حرب ضروس لا يخمد لهيبها حتى تقوم الساعة قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن

---

(١) سيد قطب – في ظلال القرآن ١/ ٤٥٩

(٢) سيد قطب – في ظلال القرآن ١/ ٤٥٨

(٣) محمد با مدحج – غزوة أحد – ص١٢٨ ، نقلاً عن محمود شيب خطاب في كتابه " الرسول القائد " ص١٢٤.



دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وهذا من أبلغ الحجج والبراهين على دحض افتراءات العلمانيين والمنافقين الذين يزعمون بأن الحرب الدينية اليوم قد انتهت وحري بالعالم أن يوحد رايته ويلتقي في الطريق تحت ستار الأسرة الواحدة والشرعية الدولية وعلى المعتقدات أن تبقى حبيسة دور العبادة والمحاريب ولا تتعداها. لكن أمة التوحيد لا تقبل بهذا الهراء فهي تعي تماما الدور المناط بها وتوقن أن ما قدره الله هو الخير ويحوي في طياته الرحمة والنعمة وإن كان ظاهره الألم والمشقة، فهي أمة تتوكل على مولاها سبحانه آخذة بالأسباب وتعي آثار أسماء الله الحسنى فتتعبد ربها بموجبها وتظهر في القلوب ثمراتها فتطمئن لوعد الله وتثق بنصره ،لكن في ظل استمرار الحملات الشرسة على ديار المسلمين وأعراضهم تظهر تساؤلات من هنا وهناك:

أما آن لهذه المهانة أن تنقشع؟ أما آن لهذا الليل أن ينجلي؟ متى يبزغ فجر الإسلام؟

إن هذا ما تجسده الآية الكريمة التي يقول الله فيها: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقد ذكر صاحب الظلال بعض الأمور التي يتأخر النصر بسببها فمن ذلك[1]:

- أن النصر قد يبطئ لأن بنية الأمة لم تنضج بعد نضجها، ولم تستكمل قوتها واستعدادها.
- وقد يبطئ حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة وآخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزا ولا غاليا لا تبذله رخيصا في سبيل الله
- وقد يبطئ حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر .
- وقد يبطئ لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار.
- وقد يبطئ لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، فتعلم يقينا أنه لا ملجأ ولا منجا منه سبحانه إلا إليه.
- وقد يبطئ لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وتضحياتها لله ولدعوته ، فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو حمية لذاتها، أو شجاعة ، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله .
- وقد يبطئ لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا.

---

(1) طريق الدعوة في ظلال القرآن ص٣٥٩.



- وقد يبطئ لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما ، فلو غلبه المؤمنون فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية.

ثانيها : التعرف على سنن الله تعالى في نصرة دينه.

وبدون هذه المعرفة لن يتم الاهتداء إلى الطريق، وحينها تضيع الجهود والأوقات ولما يأت نصر الله ومن هذه السنن:

سنن: الابتلاء، التمحيص، التمكين، التغيير، التداول، النصر:

وهي سنن نبّه إليها القرآن الكريم:

فسنة الابتلاء، تضع المؤمن على محك الاختبار، كما قال: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، وقوله (جل ثناؤه): ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٥]، وقوله (عز من قائل): ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴾[المؤمنون: ٣٠].

ومن ثبات هذه السنة أنها قد بسطت في وحي الله وعلمها أناس قبل أن تقرأ في القرآن الكريم، فهذا: ورقة بن نوفل، الذي كان لديه علم بما عند أهل الكتاب يقول للنبي ﷺ بعد سماعه خبر نزول الوحي لأول مرة: (يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك)، فيسأله النبي ﷺ في تعجب: "**أَو مخرجي هم ؟!**، قال: (نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي)[1].

وهذا قيصر الروم يقول في حديثه مع أبي سفيان: (سألتك كيف كان قتالكم إياه ، فزعمت أن الحرب سجال ودول ، فكذلك الرسل : تبتلى ، ثم تكون لهم العاقبة)[2].

وجاء في الحديث الصحيح: "**إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: ربي، إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استَخْرِجْهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة**

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب بدء الوحي ، باب حدثنا يحيى بن بكير ، ١ /٣ قال في فتح الباري : (جذعاً) بالنصب على أنه خبر كان المقدرة قاله الخطابي ، وفي رواية الأصيلي : (يا ليتني فيها جذع) .

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير، باب: [قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إلاَّ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ]، والحرب سجال ٣ / ٢٠٤ ، ٢٠٥.



مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك"[١].

في هذا الحديث دلالة اعتبار ذلك الواقع الضخم ومراعاته، وكذلك ضخامة التكليف وبدء الحمل، كما يوضح مع ذلك كيف تلتقي السنن الربانية، ومنها سنة اشتراط الجهد البشري وابتلاء بعض الناس ببعض، مع سنة العهد الرباني بنصر دينه وأوليائه وإن طال الابتلاء، فهما مقترنتان متضافرتان تعملان عملاً واحداً في نهاية المطاف[٢].

ولعلم الله عز وجل أن الابتلاء هو الوسيلة لتمييز الصفوف وتمحيص القلوب، جعله سنة ماضية، فحملُ الأمانة لا يصلح له كل الناس، بل يحتاج إلى قوم مختارين، وهم الصفوة الذين يعدّون لهذا الأمر إعداداً خاصّاً ليحسنوا القيام به.

ويضرب الأستاذ محمد قطب مثلاً لذلك قائلاً: أرأيت لو أنّ قائداً أراد إعداد جنوده للفوز في معركة صعبة ضارية، أيكون من الرحمة بهم أن يخفف لهم التدريب ويهوِّن لهم الإعداد، أم تكون الرحمة الحقيقية بهم أن يشدد عليهم في التدريب، على قدر ما تقتضيه المعركة الضارية التي يعدِّهم من أجلها؟ والمؤمنون هم حزب الله وجنوده ولله المثل الأعلى والمعركة التي يعدهم من أجلها هي المعركة العظمى: (معركة الحق والباطل، التي ينصر فيها الله الحق على يد أولئك الجنود حسبما اقتضت مشيئته وجرت سنته)[٣].

ومن النتائج المترتبة على سنة الابتلاء لاحقاً:

سنة التمحيص، فالمؤمن من جهة يتعرض للمحنة، فيُصقل معدنه من أثرها، وينضج بها كما ينضج الطعام بالنار، والمنافق من جهة ثانية لا يستطيع الصمود أمام الفتنة فتخور قواه وتنحل عراه وينكص على عقبيه؛ ولهذا جعل الله (تعالى) التمحيص مَعْبراً لتنقية الصف المؤمن من أدعياء الإيمان، فيقع به التمييز بين الدر الثمين والخرز الخسيس، كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[آل عمران: ١٧٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وفي ضوء سنة التمحيص تتحقق سنة أخرى وهي:

سنة التمكين، إذ يُمكّن الله (عز وجل) للمؤمنين في الأرض بعد أن يثبتوا جدارتهم واستحقاقهم للنصر بلجوئهم إليه وحده في وقت المحنة، وتجردهم له، وتطلعهم إليه في زمن الشدة، وتوكلهم عليه

---

(١) أخرجه مسلم، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، كتاب الجنة، ١٧/ ١٩٧ ١٩٨.

(٢) سفر بن عبد الرحمن: ظاهرة الإرجاء ، ص ١٦.

(٣) محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ١١١ .



مستيقنين من نزول نصره بعد الأخذ بكافة الأسباب المأمور بها شرعاً من صبر وتقوى وإعداد.

وقد أدرك أهل العلم والبصيرة هذه الحقيقة؛ فعندما سئل الإمام الشافعي رحمه الله: (أيهما أفضل للرجل: أن يمكّن أو يبتلى ؟ فقال: لا يمكّن حتى يبتلى)(١).

ومحصّلة هذه السنن الثلاث أن بعضها يمسك برقاب بعض كحلقات السلسلة يشد بعضها بعضاً، فلا تمكين بلا تمحيص، ولا تمحيص بلا ابتلاء؛ إذ متى تحققت أوائلها تحققت أواخرها، إنها سنن ساطعة وحقائق ثابتة.

أما سنة التغيير فالله عز وجل لا يغير حال قوم حتى يبدلوا ويغيروا ما بأنفسهم ؛ فالتغيير يبدأ من النفس سواء بالارتقاء والارتفاع إلى أعلى، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾[الرعد : ١١]، فإذا وجدت الأسباب فالنتائج تتبعها؛ إذ إن حدوث التغيير من الله عز وجل مترتب على حدوثه من البشر سلباً وإيجاباً(٢).

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: في تفسير قوله تعالى: " ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه لقوله تعالى "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم")(٣).

وهذه السنة الربانية ذات دلالتين في حالنا وواقعنا اليوم:

أولاهما: التباين الشديد بين حياة الأولين من أسلافنا وما كانوا عليه من القوة والعزة وبين ما آل إليه حالنا من الضعف والهزيمة النفسية، خير شاهد على أننا غيرنا ما بأنفسنا فغير الله حالنا.

ثانيهما: أن حالنا اليوم لن يغيره الله حتى نغير ما بأنفسنا من تفشي البدع والشرك بشتى صوره الجلية والخفية، والتبعية للغرب، ومحو آثار المعاصي والفجور التي لبست ثوب المباح والتقدم والرقي، والفرار إلى الله، وتحكيم شرعه في جميع شؤون الحياة(٤).

ومن السنن الربانية: مداولة الأيام بين الناس، من الشدة إلى الرخاء، ومن الرخاء إلى الشدة، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن الهزيمة إلى النصر، قال تعالى: ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ

---

(١) ابن القيم : الفوائد ، ص٢٢٧ .

(٢) محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، ص ٦٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم – سورة الأنفال آية رقم ٥٣.

(٤) انظر وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم ، للجليل ص٢٠٩.



قَرۡحٌ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٠].

وهذه السنة نافذة بحسب ما تقتضيه سنة تغيير ما بالأنفس: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾[الأنفال: ٥٣].

وهنا يضع الله عزوجل أيدينا على سر عظيم، وهو ارتباط المداولة بين الأمم والدول والمجتمعات مع التغيير النفسي والذاتي في الأمة؛ فسقوط الحضارات ونهوضها، والأمم في ارتفاعها وهبوطها، مرتبطة بهذا التغيير النفسي في مسارها عبر التاريخ والحاضر والمستقبل، وهي سنة ماضية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

يقول رشيد رضا رحمه الله في تفسير المنار: (إن نعم الله تعالى على الأقوام والأمم منوطة ابتداءً ودواماً بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون لاصقة بأنفسهم متمكنة منها، كانت تلك النعم ثابتة بثباتها، ولم يكن الرب الكريم ينتزعها منهم انتزاعاً بغير ظلم ولا ذنب، فإذا هم غيّروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يترتب عليها من محاسن الأعمال غيّر الله عندئذٍ ما بأنفسهم وسلب نعمته منهم[1].

وهذا السلب يكون بالإدالة عليهم؛ بتسليط عدو عليهم يستأصل شأفتهم، ويكون ذلك سبباً في انهيارهم وزوال ملكهم جزاء فسقهم وعصيانهم.

ومن أسباب الفتن وزوال النعم أن يفشو فيهم الظلم، وعدم إقامة العدل، والجهر بالمعاصي، فيأخذهم الله (عز وجل) بالسنن، ويبتليهم بالأمراض والفقر، ويجعل بأسهم بينهم.

أخرج ابن ماجه بسنده إلى عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: إنّ رسول الله ﷺ أقبل علينا بوجهه فقال: "**يا معشر المهاجرين! خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قومٌ المكيالَ إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم**"[2].

وقد تكون الإدالة على المسلمين بتخلف النصر عنهم حين يتركون طاعة الرسول أو يطمعون في

---

[1] تفسير المنار – رشيد رضا– ١٠ / ٤٢ .

[2] أخرجه ابن ماجة في السنن ، كتاب الفتن، رقم ٤٠١٩، ٢ / ١٣٣٢، والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، ٤ / ٥٤٠ ، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة: ١/ ١٦٧.



الغنيمة كما حدث في غزوة أحد، أو حين يركنون لكثرة العدد، ويعجبون بأنفسهم، وينسون سندهم الأصيل كما وقع في غزوة حنين.

وحينئذ تكون الدُولة والغلبة لغيرهم بصفة مؤقتة، لحكمة هي استكمال حقيقة الإيمان ومقتضاه من الأعمال، ومتى تحقق ذلك جاء النصر؛ لأن "الهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس هموداً وكلالاً وقنوطاً، فأما إذا بعثت الهمة، وأذكت الشعلة، وبصّرت بالمزالق، وكشفت عن طبيعة المعركة وطبيعة العقيدة وطبيعة الطريق: فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد(١).

إن سنة النصر لا تتخلف متى استوفيت الشروط، وأهمها: الاستقامة على منهج الله بطاعة أمره وإتباع رسوله، قال تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧]، وقال (جل ذكره): ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وجاءت عوامل النصر جلية واضحة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

إن من الحقائق التي استفدناها من دروس التاريخ: أن الحق لا ينتصر لمجرد أنه حق، بل لا بد من قوة تسنده وفئة تعاضده وأنصار يقومون به.

فلا بد إذن من سلطة تنصر الحق وتقمع المنكر، كما دل عليه القرآن في قول الله تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد : ٢٥]، " ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف"(٢).

ولو أخذنا نموذجا من تاريخنا المشرق ننظر كيف كُتب لأهله النصر لمّا أخذوا بأسبابه وهم الموحدون في دولة الأندلس في معركة الأرك سنة ٥٩١هـ ضد النصارى الذين كادوا يكتسحون الأندلس مستفيدين من انشغال المسلمين بإخماد بعض الثورات التي قامت في أفريقيا حتى لقد قدرت القوات الأوروبية التي احتشدت في مواجهة القوات الإسلامية بـ(١٥٠) ألف جندي تزيد عن ثلاثة

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص ٢٤٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٢٦٤.



أضعاف القوات الإسلامية، وقد تلمس بعض الدارسين لتلك الفترة بعض الأسباب التي أدت إلى انتصار الجيش المسلم، فمن ذلك[1]:

١. الاهتمام بسلامة العقيدة وتمثل ذلك في إعلان خليفة الموحدين يعقوب بن يوسف براءته من الاعتقاد بعصمة ابن تومرت واستخف بمن بالغوا في تقديسه، وشجع على الاهتمام بالقرآن وكتب الحديث المعتمدة ، وهذه محاولة جادة للاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة.
٢. اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والفقراء والأيتام وكان السلطان يشرف بنفسه على هذه الأعمال.
٣. محاربة المنكر والظلم ومعاقبة العمال الذين تشكو الرعية منهم، مع التشديد على إقامة الصلوات الخمس، ونشر العدل بين الناس.
٤. فتح باب الاجتهاد ومحاربة الجمود والتعصب للمذاهب.
٥. احترام العلماء والقضاة والفقهاء.
٦. الحزم والقيادة الرشيدة المتمثلة في توحيد البيت الموحدي والقضاء على الثورات، وإسناد المهام إلى أهلها.
٧. الاهتمام بمبدأ الشورى، فأعطى لأهل الاختصاص مكانتهم، واعتمد خطة أبي عبد الله بن صناديد ذات الأبعاد المتعددة.
٨. جودة التخطيط وظهر ذلك في حشد الألوف من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع وإحكام الخطة في المعركة الفاصلة.
٩. إذكاء روح الجهاد في الجنود فقد أمر السلطان العلماء أن يجمعوا أحاديث الجهاد على الموحدين من أجل دراستها وحفظها وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحدين.
١٠. تواضع القيادة، ويظهر ذلك عندما طلب أمير الموحدين من رعيته أن يسامحوه وأن يتغافروا فيما بينهم مما أثر في الناس.
١١. الاهتمام بمعرفة النفسيات، خاصة في أمر الجهاد فقد جعل أمير الموحدين زعيم الأندلسيين منهم، ليكون أنشط لهممهم في القتال.اهـ

ومما لا شك فيه أن هناك أسبابا تضاف إلى هذه تناسب طبيعة المرحلة الراهنة لكل زمان ومكان

ولكن إذا تخلفت هذه الأسباب تخلف النصر بطبيعة الحال، وربما حلت الهزيمة؛ لأن سنن الله تعالى لا تحابي ولا تجامل أحداً من الخلق، ولا تجاري أهواء البشر، وإنما تساير أعمالهم، وإنّ الذين يرثون الكتاب وراثة بالاسم وشهادة الميلاد، ولا يترجمون ما فيه من الأوامر والنواهي واقعاً سلوكيّاً،

---

[1] علي الصلابي – صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي ٦١١/٢



ثم يقولون: سيغفر لنا! .. لا يستجيب الله عز وجل لهم حتى يعودوا إلى العمل بما أمرهم الله في كتابه المنزل [١٠]: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وبناءً على ذلك، فإن السنن لا تحيد ولا تميل مع الأماني، وإنما تتأثر بالأعمال الجيدة والجهود المنظمة والمخططات المحكمة؛ للوصول إلى النتائج المحددة المطلوبة.

ومعنى ذلك: أنه لا يمكن أن يكون النصر بغير اتخاذ الأسباب سواء تعلق الأمر بالمؤمنين أم بالكفار.

قد يتبادر إلى الذهن سؤال وجيه وهو: ماذا يحدث لو وافق المسلمون السنن الإلهية في التغيير واستيفاء شروط النصر ، فأخذوا بالأسباب واستكملوا الإعداد للجهاد، غير أن أعداءهم كانوا أكثر كفاءة منهم تخطيطًا وتنظيمًا وقوة ؟

والجواب: إن المؤمنين حين يغيرون ما بأنفسهم ويستكملون أدوات النصر لا يضرهم تفوق الأعداء عليهم؛ لأن سنة أخرى تتدخل وهي وعد الله بالتمكين والنصر لعباده المؤمنين قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧]، ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤١]، : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر : ٥١].

وقد يتأخر ويبطئ نصر الله لحكمة ما ، كما ذكرناه سابقاً، لكن في نهاية المطاف هو آتٍ لا محالة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠].

وقد يأتي النصر في غير صورته المعروفة، وهيئته المألوفة؛ فالابتلاء والمصائب قد تحمل من الخير الخفيِّ الكثيرَ، وقد تكون سبباً لنصر أعظم وأشمل.

وعلينا ألا نيأس من نيل النصر، وأن نبحث عن أسبابه، وأنْ نجتهد في أن نكون جنداً من جنده، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

ثالثها: من تولى عن نصرة دين الله وإقامة شرعه فإن الله يستبدل من هو خير منه:

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨]، ويقول تعالى: ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾ [التوبة: ٣٩].



ذلك أن نصر الله آت لا محالة ولو بعد حين لكنه قريب إلا أن ثمة مانع منه وهو عدم التغيير من واقع الحال فحينها يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

رابعها: عوائق النصر(عوامل الهزيمة):

هناك عوائق تقف في طريق النصر، منها ما هو من خارج الصف الإسلامي، ومنها ما هو من داخله، فهي على قسمين عوائق خارجية وعوائق داخلية .

أما العوائق الخارجية فتتمثل في أعداء هذا الدين المتمثلين فيما يلي:

١. الكفار الصرحاء الذين أسفروا عن عدائهم وحقدهم على الإسلام وأهله كاليهود والنصارى والوثنيين وغيرهم.
٢. المنافقون المظهرون للإسلام والمبطنون للكفر والزندقة، وهؤلاء من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا من العلمانيين والباطنيين والموالين لأعداء هذا الدين.

وأما العوائق الداخلية فتتمثل في الانحراف الموجود في الفهم أو القصد وهي كما يلي:

١. الفرقة المشينة والاختلاف المذموم بين الدعاة.
٢. الأمراض المتمثلة في الركون إلى الدنيا والتحاسد والكبر والرياء.... الخ في نفوس أفراد الأمة[١].

وجدير بالاهتمام أن نعلم أنه لا يمكن أن يكون للعوائق الخارجية ضرر إلا في ظل وجود العوائق الداخلية، وهذا يحتم علينا أن نسقط أسباب ضعفنا ومهانتنا على أنفسنا ومن ثم نتوجه إلى إصلاحها لتكون أهلا لنصر الله عز وجل.

خامسها: المبشرات بانتصار الإسلام:

(لقد دهش المؤرخون للسرعة التي أقام بها المسلمون دولتهم وللسرعة التي انهارت بها أمامهم الإمبراطوريتان العظيمتان في ذلك الوقت، ولم يدرك الكثير منهم سر عظمة هذه الأمة الناشئة الذي يكمن في المدد الرباني لهؤلاء المجاهدين، ليس فقط بالإمداد بالملائكة تثبت الذين آمنوا، لكن أيضا بإمداد الله إياهم بمفاهيم وقيم ومقومات أهلتهم لقيادة البشرية، وانتزاع عجلة القيادة من قيم هابطة، ومفاهيم متخلفة، وعقائد فاسدة، ومثل مهترئة، فقد كانت المواجهة صراعا بين حضارتين مختلفتين كل الاختلاف في القيم والمفاهيم والمنطلقات، وكان من الشأن أن تسري سنة الله في خلقه، ويمضي

---

(١) وقفات تربوية للجليل ص٢٢٧.



قانونه المحكم أن البقاء للأصلح: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[الرعد: ١٧])[١].

والمبشرات بانتصار الإسلام كثيرة جاء بها القرآن والسنة والتاريخ، ففي التعرف على هذه المبشرات وفي الوقوف عليها طمأنينة للمسلم وتثبيت لقلبه وإعانة له على الصبر وترقب الفرج من الله.

وإنّ الكافرين وإنْ كانت لهم الغلبة الظاهرة، إلا أنّ النصر الحقيقي يتمثل في الصبر والثبات، وفي خاتمة المسار والمطاف: ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٦،٧].

لقد كانت النتائج العسكرية البحتة لكثير من الغزوات والمعارك تمثل هزائم ونكسات، ولكنها لم تكن القاضية، وكان بعدها جولات للمؤمنين غالبةٌ.

سادسها : دراسة أسباب سقوط الدول عبر التاريخ[٢].

فعندما يحدثنا التاريخ عن برابرة التتار وغارتهم الكاسحة التي خربّت بغداد وقتلت أكثر من مليون مسلم حسب رواية ابن كثير والسيوطي ولم يسلم من القتل إلا من اختفى في بئر أو قناة!

وقتل الخليفة رفساً وركلاً بأقدام التتار.. وجرى النهر أربعين ليلة أحمر اللون من كثرة ما أريق فيه من دماء المسلمين..

فهل كانت قوة التتار وحدها هي السبب وراء هذه المذبحة؟ أم أن الخيانة والتآمر من ابن العلقمي وبطانة السوء من جانب، وضعف الأمة من جانب آخر هو السبب المباشر والأقوى؟

إن ابن كثير يحدثنا أمراً عجيباً عن جندي تتريّ أراد قتل مسلم ولم يكن معه (أي: التتري) سلاح.. فقال للمسلم: ابق هنا لا تتحرك، فبقي المسلم بسبب الهزيمة الداخلية حتى غاب الجندي التتري، ثم عاد وبيده السلاح، فذبحه!!.. هكذا.. لم يبد المسلم أدنى مقاومة.. حتى لو كانت هذه المقاومة هي مجرد الفرار! بل إن ابن كثير (رحمه الله) يحكي لنا قصة أخرى أقسى وأكثر دلالة على أن من يهزمه عدوه من داخله لا يبقى أمامه إلا أن يصفي ساحة المواجهة معه من فلوله العاجزة المذعورة دون جهد أو تعب..يحكي لنا ابن كثير أن مُلَثّماً من جنود التتار دخل خاناً فيه

---

[١] من كتاب علو الهمة لأحمد إسماعيل المقدم ص٨٣

[٢] هناك بعض الكتب تناولت بالدراسة أسباب السقوط لبعض الدول الإسلامية، منها: كتاب " دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية " لعبد الحليم عويس– طبعة دار الوفاء بمصر، ومنها : كتاب" سقوط الدولة العثمانية "لعبد اللطيف الحميد – طبعة مكتبة العبيكان، ومنها: كتاب "كيف سقطت الخلافة الإسلامية" لفتحي شهاب الدين – طبعة دار البشير بمصر، ومنها: كتاب" سقوط الأندلس" لناصر العمر– طبعة دار الوطن، ومنها: كتاب "سقوط غرناطة " لشوقي أبي خليل – طبعة دار الفكر.



الكثير من المسلمين، فبدأ في قتلهم.. وهو واحد وهم كثرة.. وهم لا يفعلون شيئاً إلا أن يسلموا رقابهم للذبح.. حتى رأى أحدهم أن من يقوم بقتل الجميع هي فتاة ضعيفة !! هنا .. وهنا فقط !! اجتمعوا عليها فقتلوها! !)[1].

ويتساءل المرء: ما الفرق بين أن تكون فتاة ضعيفة أو رجلاً قويّاً في مواجهة هذه الكثرة من المسلمين؟ .. ولكنه الوهن .. والهزيمة الداخلية، التي تُوجِدُ في النفوس الرهبة والخوف، فتشلها عن المواجهة، وتقعدها عن المجاهدة فتلقي بسلاحها قبل أن تبدأ المعركة..

كذلك ونحن نطالع المحاق الأندلسي لنقف على أسبابه:

فنجد أنه قد ظهرت (القابلية للسقوط) في الأندلس على مستوى الفرد والأمة ، بداية من التناحر والصراع على السلطة، وإقامة الكيانات الطائفية الصغيرة، والاستعانة بأعداء الله لحماية تلك الكيانات الهزيلة.. وكانت هذه الأسباب وغيرها من الأسباب التي نشأت في (داخل) الأمة هي التي أعطت إشارة العمل والقوة لأعداء الأمة ، فقاموا بتفريغ كل حقدهم الكاثوليكي على الإسلام والمسلمين ومن ثم: سقطت الأندلس، وشهد المسلمون هناك العمل المتواصل لإزالة كل ما هو إسلامي..

أمّا نحن: فقد علمتنا الأندلس "المعادلة الصحيحة في تفسير التاريخ : خروج على سنن الله.. إمهال نسبي من الله قد يغرى الخارجين على تلك السنن بالتمادي، ثم تتجمع عوامل الفناء لتشكل عامل إغلاق لباب العودة.. إبادة وموت في شكل مجموعة من الكوارث[2] تلك الكوارث التي تمثل النتيجة الحتمية لمقدمات موت الأمة، ووصولها إلى الطريق المسدود في حركتها داخل التاريخ.

سقوط آخر خلافة:

الدارس لسقوط الخلافة العثمانية على يد الطاغية: كمال أتاتورك، يوقن أن هذا الرجل لم يكن يملك قوة خارقة أو يستند إلى قوة لا تقهر تمكنه من إسقاط ذلك الكيان، وإنما كان السقوط بسبب داخلي هو الشيخوخة السياسية لدولة الخلافة بسبب الاستبداد، والشلل العلمي بسبب إقفال باب الاجتهاد، واللذين أديا إلى تسكير الأبصار وتوقف الاعتبار، مما جعل الأمة عالة على غيرها فعاش كل فرد فيها همّه الفردي في الطعام واللباس والمسكن ومن ثم تحولت الأمة إلى أمة ميتة، لم يدلنا على موتها إلا كمال أتاتورك الذي قام بدور دابة الأرض كما حصل ذلك في قصة موت سليمان عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤].

---

[1] ابن كثير: البداية والنهاية ، ١٣ / ٢٠٠ وما بعدها .

[2] د عبد الحليم عويس: أوراق ذابلة من حضارتنا ، ص ٣٩ .



وهكذا حال كل أمة (ميتة): قد تبقى زمناً دون أن تسقط ؛ لأنها "تتكئ على منسأتها من أجهزة الأمن، فيخيل للرازحين تحت ظلمها أنها حية قائمة، فإذا بعث الله عليها عناصر مقاومة من الداخل، أو قوة غازية من الخارج، فتأكل منسأتها فتخر ساقطة، وحينئذ يتبين الرازحون تحت ظلمها أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين! !"[1].

ويمكن إرجاع عوامل سقوطها إلى التالي[2]:

- البعد عن منهج الإسلام.الذي من مظاهره:

١. تعلق علية القوم وطبقات المجتمع بالنزعات الصوفية.
٢. مظاهر الترف.
٣. كثرة الجواري من أجناس مختلفة ومنهن اليهوديات والنصرانيات، وكان لهن دور كبير في تدبير المؤامرات.

- إخفاق محاولات الإصلاح في أواخر عهد الدولة:

والمقصود الإصلاح المبني على أسس إسلامية، لكن كانت الغلبة لتيار آخر نادى بالإصلاح على أسس غربية ، تلك الفكرة التي تبناها فؤاد باشا(وزير الدولة).

- تعدد العناصر وتنوع الملل وظهور الحركات القومية.

فقد كانت الدولة العثمانية تضم عناصر كثيرة، وقوميات متعددة ، مختلفة الأديان، متشعبة المذاهب، بسبب اتساع رقعتها، وكان هذا التنوع مصدر قلق للدولة في مرحلة ضعفها، ولعل أخطر إجراز سمح به العثمانيون: هو إعطاء الدول الأجنبية حق حماية الأقليات في الأراضي العثمانية، فكانت امتيازات الحماية سبباً مباشراً للتدخل الأوروبي في مصالح الدولة العثمانية.

وأما الحركات القومية فقد: (استغل اليهود بعض مفكري العرب وأكثرهم من النصارى لإبراز مساوئ الخلافة، وقد اعترف مؤرخوا النصارى من العرب بأن الرواد الأوائل لحركة القومية العربية كانوا من النصارى وأنهم تعاونوا مع الماسونية ومحافلها في المشرق)[3].

- الحركات الباطنية.

حيث كانت الدولة الصفوية الشيعية في فارس، شوكة دامية بجوار الدولة العثمانية، خاصة أيام "إسماعيل الصفوي" الذي كان يطمح إلى تأسيس امبراطورية رافضية في العالم الإسلامي، فكان يشغل العثمانيين عن متابعتهم فتوحاتهم في أوروبا.

---

[1] د/ ماجد الكيلاني: إخراج الأمة المسلمة، ص ١٣٠ بتصرف.

[2] محمد فاروق الخالدي – المؤامر ة الكبرى على بلاد الشام ص٤٣ وما بعدها بتصرف يسير.

[3] جورج أنطونيس – يقظة العرب – ص١٤٩وما بعدها.



كذلك ثورات الدروز في لبنان وجبل حوران، كذلك النصيريين وكانت تعتبرهم الدولة طائفة نشازاً ليسوا مسلمين ولا أهل ذمة، ولذا لم تدخلهم في إطار " نظام الملل " الذي شرعته، وكانوا عوناً للدولة الصفوية ضد العثمانيين.

- الغزو الفكري والعسكري.

أما الغزو الفكري فيتمثل في كثرة المدارس الأجنبية في الدولة العثمانية، ناهيك عن نشاط حركة الاستشراق والتنصير في استانبول ومدن الشام.

أما الغزو العسكري والاستعماري فكان يخطط له منذ أمد بعيد انتقاما لسقوط القسطنطينية، وكان ذلك بالتعاون مع جمعيات الماسون السرية وعصابات يهود الموتورة.

- مطامع الحركة الصهيونية ودسائس اليهود.

فهذه العوامل المتقدمة منها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي ومن يرى الحياة من خلال واقعه، وليس من خلال أمانيه.. يدرك أن واقع أمتنا لا يخرج عن أن يكون النتيجة البدهية للمقدمات التي صغناها نحن بأيدينا .. وأنه لو زالت أمامنا كل عقبة خارجية تحول بيننا وبين التغيير، لما أمكننا أن نصنع شيئاً قبل أن نغير ما بأنفسنا وداخل أمتنا، وندرك دون لبس أو غموض أو إيهام الإجابة الشافية على السؤال التالي:

متى تبدأ هزائم أمتنا؟

إن سنة الله التي تحكم قيام الأمم أو سقوطها هي أن (السقوط) والهزيمة (نتيجة) تتكرر كلما جاء (سببها) وهو (الوهن الداخلي).

لقد فطن لتلك (السنة) أعداء أمتنا، بل وتحركوا من خلالها قديماً وحديثاً:

حكمة ملك الصين:

أرسل (يزدجرد) كسرى الفرس إلى ملك الصين يطلب منه العون والنجدة بعد هزيمته في معركة (نهاوند) .. فقال ملك الصين لرسول كسرى : قد عرفتُ أن حقّاً على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم، فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فقال رسول يزدجرد: سلني عما أحببت:

ملك الصين: أيوفون بالعهد ؟ .

رسول يزدجرد: نعم .

ملك الصين: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم ؟ .

رسول يزدجرد: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث : إمّا دينهم ، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة، أو المنابذة.



ملك الصين: فكيف طاعتهم أمراءهم ؟.

رسول يزدجرد: أطوع قوم لمرشدهم.

ملك الصين: فما يحلون وما يحرمون؟ .. ويخبره رسول يزدجرد.

ملك الصين: أيحرمون ما حلل لهم، أو يحلون ما حرم عليهم ؟.

رسول يزدجرد: لا.

ملك الصين: فإن هؤلاء القوم لايهلكون أبداً حتى يحلّوا حرامهم ، ويحرّموا حلالهم ....

ثم كتب ملك الصين كتاباً إلى يزدجرد جاء فيه: إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يطاولون الجبال لهدوها، ولو خُليّ سربهم أزالوني ماداموا على ما وصف، فسالمهم، وارض منهم بالمساكنة، ولا تهيجهم ما لم يهيجوك[١].

هذه هي حكمة ملك الصين: إن هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يُحلّوا حرامهم، ويُحَرّموا حلالهم .. إن الهزائم تبدأ من هنا .. من داخل الأمة، وليس من خارجها .. وهذه الحكمة جديرة بأن نضعها نصب أعيننا ونحن نقرأ الماضي، ونبصر الحاضر، حتى نقدر على القراءة الصحيحة لمستقبلنا..

درس من توينبي:

لم يتمكن علماء وفلاسفة الاجتماع والحضارة من الوصول إلى كثير من السنن التي تحكم البناء أو السقوط الحضاري .. هذه حقيقة .. ولكن هذه الحقيقة لا تعني جهلهم التام بها .. فقد أصاب المؤرخ البريطاني توينبي في كتابه (دراسة تاريخ العالم) حين أشار إلى أن علة انهيار الأمم وهزيمتها هي (الانتحار الداخلي)، قبل أي عامل خارجي لا يعدو دوره الكشف عن هذا الانتحار[٢].

ونحن هنا لا نستدل بآراء توينبي ، فهذه الآراء ما زالت تستدعي الكثير من الحوار والنقاش.. ولكن حسبنا أن هذه القاعدة التي ذكرها تدفعنا في رحلة للتفتيش عن مواطن الخلل الداخلي لاستدراكها ، ومراجعة أسباب القصور الذاتي لعلاجها، ولتكن نتيجة هذه الرحلة هي: خطوة في الطريق الصحيح.

الهزيمة والتحدي:

إن أعداءنا يدفعوننا دائماً إلى الزهد في أخطائنا الداخلية تحت دعوى أولويات مزعومة ننخدع لها نحن أحياناً بسذاجة غريبة.. بينما هذه الأخطاء الداخلية هي في رأس قائمة الأولويات ..

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣.

(٢) أرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ ، ١ / ٤١٢.



ذلك أن التأثير القوي في الخارج إنما هو النتيجة البدهية لنظام دقيق وصحيح في الداخل .. إن من البدهي أن نتوقع من أعدائنا كل خبث وكيد وتخطيط مضاد، وليس لنا أن نطالبهم بعدم الكيد لنا، والعمل على تحقيق ذلك الهدف .. فهذا لون من سفه العقل .. وإنما سيطرتنا على أعدائنا لها طريق واحد، هو: تطهير أنفسنا من الداخل، من أخلاقيات الضعف والخوف وممارسات الانعزال في دائرة الهموم الفردية، والتي تمهد لقبولنا الاستعباد والخضوع .. إن واقعنا اليوم قد يكون (أزمة كبرى) .. ولكن الأزمات الكبرى هي التي توقظ الأمم من سباتها، وتحفّزها للانطلاق من جديد .

فهل نقدر اليوم على أن نحوّل (الهزيمة النفسية) بعد شعورنا بوجودها إلى دافع يفجر روح (التحدي) والرفض للواقع المزري؟ فنبدأ خطوة في الطريق الصحيح تقضي على الخلايا الشائخة في الأمة ، وتدفعها نحو بعث جديد من (مرقدها الحضاري).. هل نخطو هذه الخطوة في الطريق الصحيح، أم نُبْقي عجلة التحكم في مصير أمتنا بيد أعدائنا بدعوى أن قوتهم هي التي تقتل بعثنا الحضاري.. بينما الحقيقة المرّة: أننا نحن الذين نقتل هذا البعث الحضاري عبر ما بأنفسنا من (الانحراف الفكري).. و(القابلية للهزيمة).. و(الانتحار الداخلي) ؟ !

هذا نذير.. فهل من مجيب ؟

سابعها: التعرف على المنهج الصحيح للتغيير:

تعددت المناهج الدعوية في سلوك الطريق الأنسب لتغيير الواقع المرير، فمنهم من أصابه اليأس والإحباط ينتظر خارقة من السماء. ومنهم من ظن أن الحل يكمن في التنازل للأعداء والرضا بالحلول الوسط، ومنهم من يرى المواجهة واستعجال النصر ، وكل ذلك – والله أعلم – بسبب شدة الوطأة على المسلمين مع ما صاحبه من إغفال سنن الله عز وجل في التغيير.

وإن الحل الملائم لواقعنا اليوم يكمن في منهج الرسول الكريم ﷺ وبالذات في الجوانب المشابهة للحالة الراهنة وذلك في بداية الدعوة واستضعافها. وباستقراء معالم هذا المنهج يتبين أن أهمها ما يلي:

أولا : في مجال الدعوة والتوجيه.

والكمال المنشود فيه يتحقق بما يلي:

١- الطليعة تقود الأمة:

يضع الإسلام لقيادة الأمة الإسلامية شروطاً دقيقة ومواصفات خاصة، وهم (أولو الأمر) وهم (العلماء والأمراء) وبصلاح هذين الأصلين يصلح حال الأمة. ويرى بعض المفسرين أنهم (العلماء) وحدهم. ويعمم ابن تيمية الصفة فيدخل فيهم الملوك والمشايخ، وأهل الديوان، وكل من كان متبوعاً فإنه من أولي الأمر[1].

[1] ابن تيمية – الحسبة في الإسلام – ص١٨٥.



وعند الشوكاني هم الأئمة والسلاطين والقضاة وكل من له ولاية شرعية[1]. وعلى أي حال فأولو الأمر هم أصحاب التصرف في شأن الأمة والذين يملكون زمام الأمور وبيدهم قيادة الأمة[2].

ولا شك أن هذا الاهتمام بأمر القيادة في الأمة الإسلامية، يرجع إلى أن الأمة التي يقودها ويتولى زمام أمورها (فقهاء) و(أولو ألباب) تتقدم وتنتصر، أما الأمة التي يقودها ويتولى زمام أمورها (خطباء) لا يحسنون إلا التلاعب بالمشاعر والعواطف.. فإنها تبقى تتلهى بـ (الأماني) حتى إذا جابهت الأزمات لم (يفقه)حكامها من (الخطباء) ماذا يصنعون ؟ وآل أمرهم إلى الفشل، وأحلوا أمتهم دار البوار. ومن هنا فإنه لا سبيل إلى الإحياء الحضاري للأمة الإسلامية إلا أن يوجد في الأمة (فقهاء) يتصفون بصفات المؤمنين ويتحركون على أساس من الوعي بقيم الوحي قرآناً وسنة مع الدراية بشؤون الواقع.. (فقهاء) يتميزون بمنهجيتهم وموضوعيتهم في رؤية حقائق الواقع، ومواجهة تحديات العصر .ولكي يستطيع هؤلاء الفقهاء حمل رسالة أمتهم وتقديم العطاء الحضاري المنشود، لابد أن يكون عملهم بـ (روح الفريق) ولا بد أن تربط بينهم شبكة من العلاقات العقائدية والاجتماعية، خيوطها الإيمان والتكامل والتناصر والجهاد في سبيل الخروج بالأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة ومن الاستضعاف إلى التمكين.

٢- الانطلاق في الدعوة إلى الله عز وجل من أصلين عظيمين ذكرهما الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ الآية [يوسف : ١٠٨].

فالأصل الأول: أن تكون الدعوة إلى الله وتوحيده والإخلاص له والموالاة والمعاداة على أساسه، لا يدعوا إلى شخص، ولا إلى حزب، ولا إلى رأيه، لكن إلى الله وحده ليتحقق له بذلك سلامة القصد.

والأصل الثاني : أن تكون الدعوة على بصيرة وعلم ودليل واتباع للرسول، ليتحقق له سلامة الفهم.

ثانياً : في مجال التربية والإعداد:

والكمال المنشود فيه يتحقق بما يلي:

١. الإيمان بالله وبوعده الذي لا يتخلف، كما قال تعالى: (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وكان النبي صلوات الله وسلامه عليه يربي أصحابه على ذلك وهم في حالة الاستضعاف والإيذاء[3].

---

[1] الشوكاني – فتح القدير – ١/ ٤٨١.

[2] عبد الله الطريقي – طاعة أولي الأمر – ص١٢

[3] ومن ذلك قوله ﷺ لخباب بن الأرت عندما جاءه يشكو إليه أذى المشركين ويطلب نصر الله تعالى: "قد **كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه**..." الحديث رواه البخاري في صحيحه – كتاب الإكراه (٦٩٤٣).



٢. السعي إلى توحيد صفوف أهل السنة، ونبذ الفرقة والتنازع والتفرق.

٣. تزكية النفوس، وإحياء السلوك الإسلامي، وأخلاق السلف الفاضلة.

٤. التركيز على الجانب التعبدي.

٥. توطين النفس على الصبر على البلاء، وسياسة النفس الطويل، وتعويدها على أن يكون انطلاقها من الشريعة وقواعدها لا من ردود الأفعال والعواطف الملتهبة.

٦. إعداد النفوس إعداداً متكاملا في باب الجهاد في سبيل الله عز وجل، مع فقه الحديث القائل: "**من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق**" فلا يكفي أن يحدث الإنسان نفسه أنه سيغزو مكتفيا بذلك وهو متكئ على أريكته قد أشرب قلبه حب دنياه، فتحديث النفس هذا ليس هو الحديث المنجي، إنما الحديث المنجي هو أمور عملية وخطوات من أهمها:

أ- الإعداد العلمي والفقه في الدين والبصيرة فيه، حتى يفقه لماذا يجاهد؟ وكيف يجاهد؟ ومن يجاهد؟ وعلى أي عقيدة يجاهد؟

ب- الإعداد التربوي والسلوكي من إخلاص النية لله والتقرب له بالطاعات، والتخلق بأخلاق الإسلام.

ت- التربية على الإنفاق في سبيل الله، وتخليص النفس من الشح وحب الدنيا.

ث- الإعداد الجسمي، وذلك بالرعاية الصحية والرياضة البدنية وركوب الخيل والسباحة والرماية ونحو ذلك مما من شأنه أن يكون فيه إرهاب للعد.

وفي ظل هذا الواقع، لا بد أن نؤكد أن المسئولية عن الإسلام هي مسئولية كل من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله على تفاوت في الدرجات بتفاوت الاستعدادات، والقدرات، والمواقع، والظروف..

٧- إحياء الهوية الإسلامية التي تشكل الحافز العقدي والدافع النفسي الذي يدفع الأمة في طريق التقدم والحضارة، ويقاوم في ذات الوقت الاجتياح الحضاري للأمم الأخرى التي تزعم أن الإحياء الحضاري لشعوبها هو إحياء هويتها الوطنية أو القومية أو غير ذلك.

وفي ختام هذا البحث يمكن أن نخرج بالنتائج والتوصيات التالية:

إن بدايات الخطوات الصحيحة في طريق النصر كما هدانا إليها القرآن تكمن فيما يلي:

١) الحذر من الغفلة عن منهج الله ، بتجاهل السنن الربانية التي تحكم حياة الأفراد والأمم.

٢) فهم هذه السنن وتسخيرها على الوجه الصحيح.

٣) سنة الله في الخلق تسري على كل شيء في هذا الوجود من غير تمييز سواء أكان هذا الشيء مادياً أم معنوياً، ونحن البشر خاضعون كغيرنا من خلائق هذا الوجود لسنن الله، شئنا أم أبينا،



وهذه الحقيقة تحتم علينا مسايرة هذه السنن لكي نتمكن من تسخيرها فيما ينفعنا ، وإلا فإن مخالفة السنن أو معاندتها لا تأتي بخير.

٤) يلزم معرفة السنة التي يقوم عليها أي عمل قبل الشروع فيه، فإذا عرفنا سنته علينا أن نهيئ الشروط اللازمة لهذه السنة.

فإذا فشلنا في إنجاز العمل المطلوب فإن هذا الفشل يعني وقوع خللٍ مّا في الخطة، هذا الخلل هو أول خطوة في طريق الهزيمة.

ويمكن أن نحصر مواضع الخلل في ثلاثة مواضع رئيسة:

١) عدم سلوك الطريق الصحيح نحو الهدف أو عدم إصابة السنة التي توافق العمل.

٢) وجود عوامل خارجية تحول دون تحقيق السنة وبلوغها.

٣) وجود عوامل داخلية تؤدي إلى الإخلال بشرط أو بأكثر من الشروط اللازمة للسنة التي تتحكم بالعمل.

هذا وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا البحث على الوجه المرضي، وصلى الله وسلم على النبي وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المصادر والمراجع

١) ظلال القرآن – سيد قطب – دار الشروق – ط١٠

٢) صحيح البخاري – محمد بن إسماعيل البخاري- ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي – الطبعة السلفية

٣) صحيح مسلم – ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء الكتب العربية

٤) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي – سفر عبد الرحمن الحوالي – ط٢

٥) الفوائد – محمد بن أبي بكر بن القيم –

٦) منهج كتابة التاريخ الإسلامي – محمد بن صامل السلمي – دار طيبة – ط١

٧) تفسير القرآن العظيم – أبو الفداء إسماعيل بن كثير – دار الفكر

٨) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم – عبد العزيز بن ناصر الجليل – دار طيبة – ط٢

٩) تفسير المنار – محمد رشيد رضا – ط٢- دار المعرفة- بيروت

١٠) سنن ابن ماجه – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – مطبعة دار إحياء الكتب العربية

١١) طريق الدعوة في ظلال القرآن – سيد قطب – جمع أحمد فائز – مؤسسة الرسالة – ط١

١٢) تلخيص المستدرك – الحافظ الذهبي –

١٣) السلسلة الصحيحة – محمد ناصر الدين الألباني – المكتب الإسلامي – ط١

١٤) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي – علي محمد الصلابي – دار القمة – الإسكندرية

١٥) علو الهمة – محمد بن إسماعيل المقدم – دار ابن الجوزي

١٦) البداية والنهاية – أبو الفداء إسماعيل بن كثير – طبعة مكتبة المعارف – سنة ١٩٦٦م- بيروت

١٧) أوراق ذابلة من حضارتنا – عبد الحليم عويس

١٨) إخراج الأمة المسلمة – ماجد الكيلاني – مكتبة دار الاستقامة – مكة المكرمة – ط١

١٩) تاريخ الأمم والملوك – محمد بن جرير الطبري – ط٢- دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان

٢٠) مختصر دراسة التاريخ – أرنولد توينبي – ترجمة فؤاد محمد شبل – جامعة الدول العربية – ط١

٢١) يقظة العرب – جورج أنطونيس – بيروت –١٩٦٦م – ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس



٢٢) المؤامرة الكبرى على بلاد الشام – محمد فاروق الخالدي – دار الراوي – ط١- ١٤٢١هـ
٢٣) غزوة أحد دراسة دعوية – محمد بامدحج – ط١- دار إشبيليا
٢٤) الرسول القائد – محمود شيب خطاب- ط٢- دار ومكتبة الحياة – بغداد
٢٥) الحسبة في الإسلام – شيخ الإسلام ابن تيمية – تحقيق محمد زهري النجار – المؤسسة السعيدية بالرياض – ١٩٨٠م
٢٦) فتح القدير – محمد بن علي الشوكاني – مؤسسة التاريخ العربي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان
٢٧) طاعة أولي الأمر – عبد الله الطريقي – ط١- ١٤١٤هـ – دار المسلم – الرياض .
٢٨) حول التفسير الإسلامي للتاريخ – محمد قطب – المجموعة الإعلامية السعودية – ط١

